

دراسة من زمن التوجه بيون



ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة



للإعلام والثقافة والفنون
www.almadasupplements.com

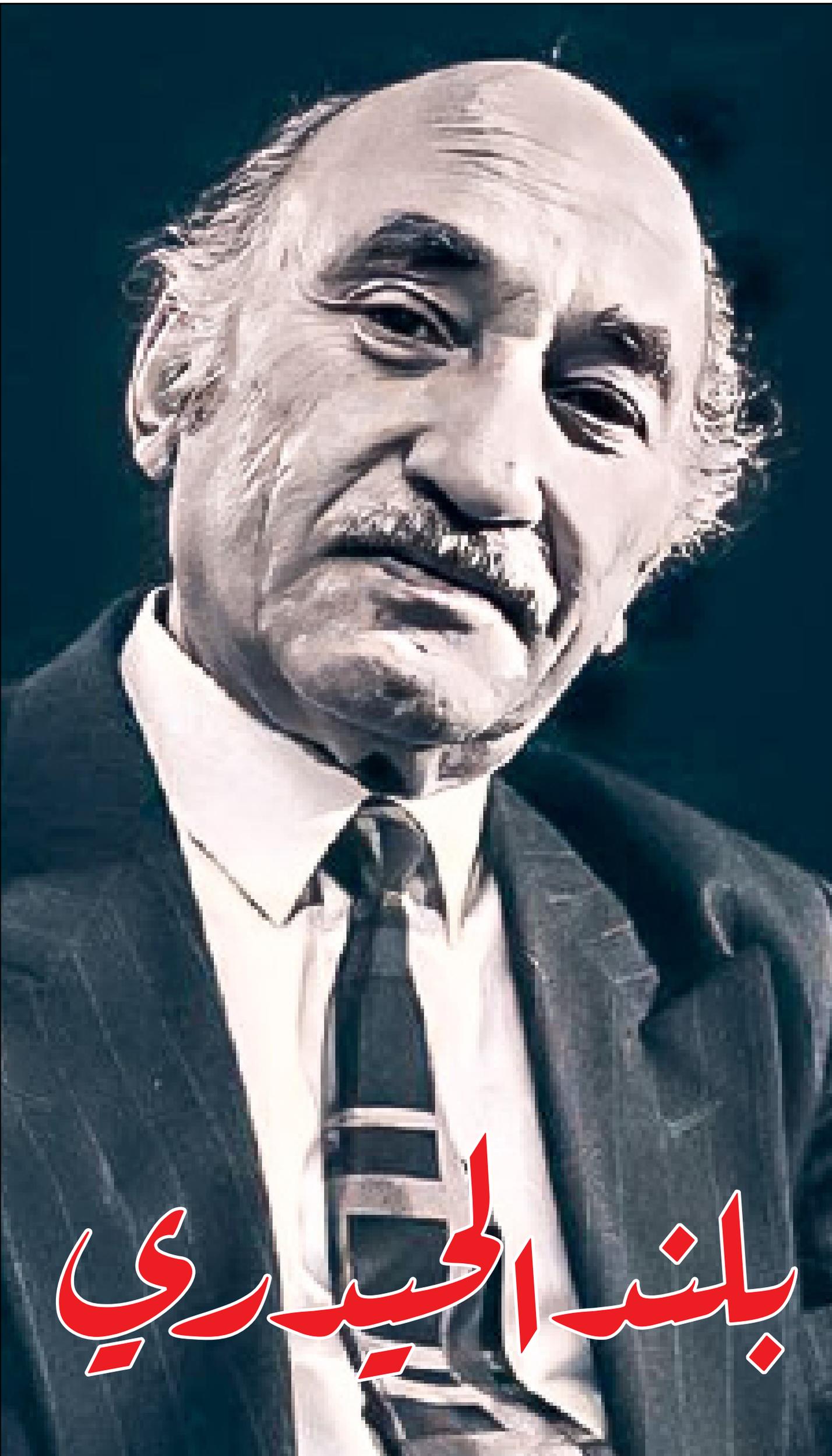
"21 عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير

مخزي لريم

العدد (5803) السنة الثانية والعشرون
الخميس (8) أيار 2025

بلند الحيدري



بلند الحيدري وجاذبية الفلسفة

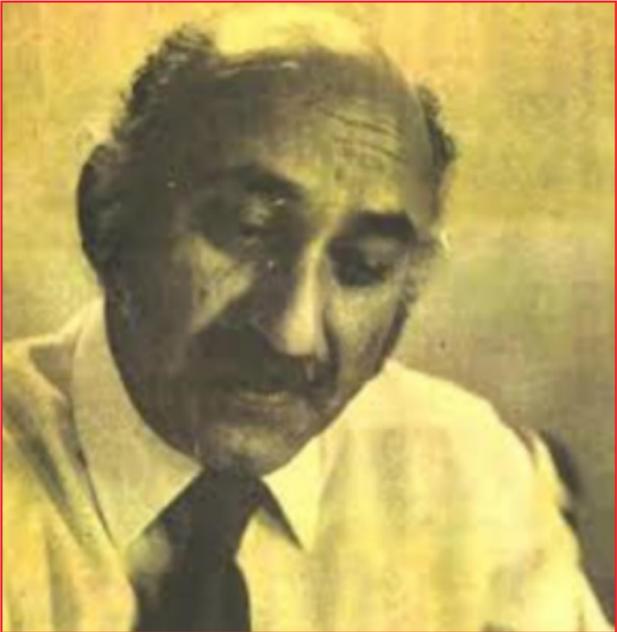
د. حسين الهنداوي

الفلسفة كانت اللحظة الأذفا في النقاش مع الشاعر الراحل بلند الحيدري كلما سنحت فرصة حديث معه، وهي كانت دائماً، مناسبات مبهجة وتلقائية وبعيدة عن الجدية المتصنعة. كانت أحاديث عالية الود والعق و العفوية تتعدت أو تنفرد دون تعدد، وتتأثر بين لقاتنا الأول في ١٩٨٨ وبين رحيله المباغت في ٩ آب (أغسطس) ١٩٩٦. الأول منها كان قبيل، وخاصة بعد، ندوة فكرية لي في ديوان الكوفة ببلند نحو منتصف عام ١٩٨٨ حول "هيجل والفلسفة الإسلامية" أدارها باقتدار عال الشاعر و الناقد الكبير الدكتور صلاح نيازبي أمام مستمعين لم يبلغ عددهم العشرين من محبي الفلسفة كان حضورهم حدثاً بذاته، ولم يكن بلند الحيدري ومحمد مكية ورفعة الجارحي وصلاح فائق وكاظم الخليفة وكنعان مكية واحمد المهنا ويسري حسين ومي غصوب وسعدي عبد اللطيف وأحمد ناهد إلا من ظل في الذاكرة منهم، هيبية الحضور زادهالقا عميق وتخصصية الاستفهامات وروح التواضع التي أثرت على هامش تلك المحاولة التي حاولت خلالها إبراز مركزية فكرة الحرية باعتبارها جوهر الفلسفة الهيجلية مفندا لمجمل الصياغات والعقائد الجامدة السائدة في الثقافة العربية المعاصرة حولها ولحد الآن غالباً.

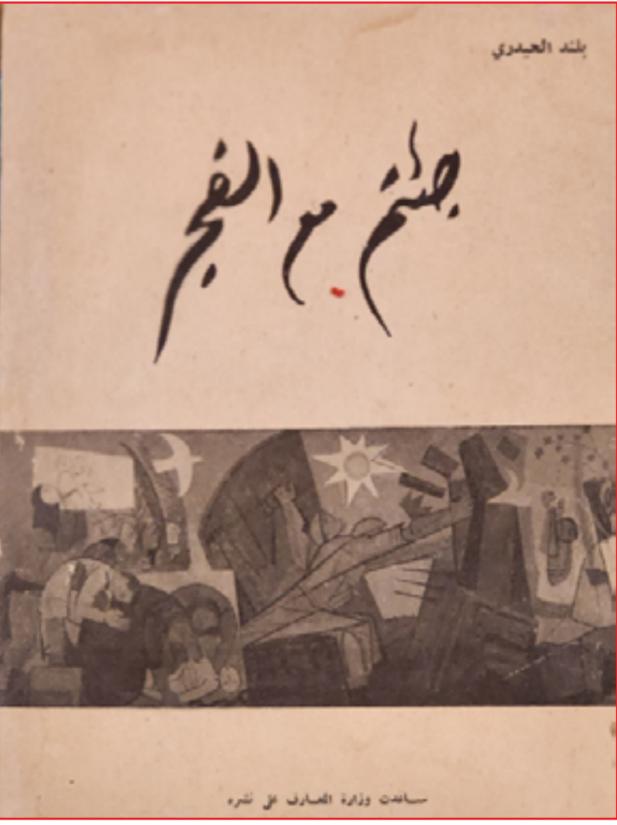
شدني بلند منذ الوهلة الأولى بأدبه الجم مثلما أدهشني بمعرفته الطيبة بفلسفة هيجل وبعاطفته حيال ذلك الفيلسوف الألماني المتوفى قبل أكثر من قرن ونصف القرن آنذ، والمجهول عليا بل بالأحرى المشوه السمعة في ثقافتنا الماخوذة بقوة لا سيما آنذاك بفكرة ملتبسة، نشرها بعض الايديولوجيين المتركسين عنه، مفادها أن هيجل هو محض مفكر مثالي بروجوازي وحتى رجعي، زاعمين مع بعض الغرور أيضاً أن الماركسية أعادت إلى الهيجلية مجدها المولود، الديالكتيك، عندما جعلته "يشي على قدميه بعد أن كان يمشي على رأسه" عند هيجل كما خيّل لهم.

والحال، برأينا، لا يمكن بأي شكل مقارنة عقرية وأصالة مفهوم الديالكتيك الهيجلي، مع نسخته المودلجة وبالتالي الميكانيكية التي صاغها واعتلقها عقائديون مناركسيون من شتى التيارات، ليس كارل ماركس بينهم في كل الأحوال. فتمة توصل حميم بل تكامل بين الجدلين الماركسي والهيجلي لا يدركه الايديولوجيون الذين لم يلمسوا أيضاً وجود توأصل وتكامل بين "الأيديولوجية الألمانية" و"رأس المال"، أي بين أول وآخر مؤلفات ماركس نفسه.

تلك الانطباعات المشتركة الأولى، سترافق أحاديثنا اللاحقة كلما تعلق الأمر بالفلسفة لتجعل اللقاء مع بلند الحيدري لحظة ممتعة لي بذاتها، زاد من أهميتها أن الشاعر الراحل كان يبدار، كما مع سواي، إلى ايصال انطباعاته النقدية والتشجيعية عن مقالات لي تعنى بالفلسفة دايت مجلة "الغزتاب الادبي اللندنية الرائدة على نشرها آنذاك، مستفهماً أو نادقاً أو مشككاً بأفكار أو مشكلات تضمنتها حول قضايا "الحرية" و"الاستبداد الشرقي" و"موت الفن" و"الصراع بين الوظيفي والجمالي في فن العمارة"، و"بين الذات الفردية والذات الجماعية في الشعر والفن عامة". كما بدا لي أن الفلسفة هي السبب العميق ربما في حذره غير المعلن لكن القديم تجاه الدوغماتيات كافة.



بلند الحيدري



ساهمت وزارة المعارف على نشره

بوعد لم يعد من الشهود عليه أحد، بعد وفاة بلند ورفيقة عمره الفنانة التشكيلية دلال المفتي، سوى الوفاء.

ينبغي التأكيد من الآن، وقبل كل شيء، على أن الفلسفة لدى هذا الشاعر كانت محض غرض شعري وجمالي الأصول دائماً وليس توجها معرفياً ممنهجاً وديقفاً. فهو استفاد منها بالشكل الذي شاء وفهمها بالطريقة التي بدت له موائمة أو ممتعة. أما مراحل احتكاكه بأفكار فلسفية غريبة أو أخرى فهي برأينا ثلاث، الأولى منها غير مباشرة تماماً ويعبر عنها روحها البوليربي المحض كما في ديوانه الأول "خفقة الطين" (١٩٤٦) خاصة وقصائد في مجموعات لاحقة. المرحلة الثانية تنضج بروح وجودية وتوحي باستفادة مباشرة أو شبه مباشرة من نصوص لجان بول سارتر أو ألبير كامو المتأثرين جداً بهيجل بدهاء. وتندرج في هذا الإطار الوجودي، المتركس بحذر بين محبي وحين، معظم قصائد مجموعاته "أغاني المدينة الميتة" (١٩٥١) و"جثمت مع الفجر" (١٩٦١) و"خطوات في الغربية" (١٩٦٥) وحتى "رحلة الحروف الصفر" (١٩٦٨). أما الثالثة فهي مرحلة تأثير نصوص هيجلية محضة في شعر بلند الحيدري كخيار فكري/جمالي واع ومعلن بخلاق بذاته وهي تنتهاي مع مرحلة النضج العليا من شعره إذا جاز القول وخاصة في مجموعتيه "حوار عبر الأبعاد الثلاثة" (١٩٧٢) و"أغاني الحارس المتعب" (١٩٧٣).

– المرحلة البوليربية وتجاوز رومانسية أبو شبكة لم يتردد الشاعر العراقي بلند الحيدري من إخبارنا مراراً بأنه تأثر في شبابه بالتيار البوليربي في الشعر العربي ممثلاً خاصة بمحمود حسن إسماعيل والباس أبو شبكة وعمر أبو ريشة وسعيد عقل إلى جانب الإعجاب المبكر بقصائد شعري المهجر النابضة بوجدانية حارة وذاتية،وعواطف رومانسية جياشئة بالمرارة والغربة والضيق والمنفى، والدائرة حول موضوعات "فلسفية" مجردة وغامضة كالحمية والفناء والروح والخلود والزمان والعدم وهو ما ميّز قصائد همس الجنون" لمخائيل نعيمة خاصة وكانت عامل شهرته السريعة.

والحال إن هؤلاء جميعاهم جسر ثورة الحدائة النوعية التي أدت إلى تطور الشعر العربي الحديث لاحقاً على يد بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وبلند الحيدري وعبد الوهاب البياتي ومحمود عقادديون مناركسيون من شتى التيارات، مجاله وفي خضم مخاض معقد تماماً كمخاض الثورة التي جرت داخل الشعر الفرنسي في القرن التاسع عشر وأدت إلى ظهور تيار الحدائة فيه على يد بولدير ورامبو وفيرلين ولوترامون ومالارميه فيما لعب ورد زورث وكوليردج وشللي وكيتس وبيرون الدور نفسه في الشعر الانكليزي. وفي تأكيد على الأبعاد التلقائية والعاطفية لروح تلك الحقبة المقتربة بالأزمات العالمية الكبرى والاستفهامات الكونية والهزات الشاملة والتمرد العنيفة، يرد هذا النض على لسان بلند الحيدري:

"هناك في بغداد الأمس كان الواحد ممًا يحاول أن يجد لما تراكم في نفسه من قلق و هلع وخيبة متسعا في الأدب يثبت فيه قيماً جديدة تتناسب مع أحاسيسه وتفهمه العاطفي لمشاكل العالم. كان العالم يتحدث بصوت مبحوح عن جريمة قتل مرعبة حدثت في هيروشيما، وعن انتحار كاتب ألماني في البرازيل، وعن طالب بعث برسالة إلى الرئيس الأميركي يسأله عما إذا كان عليه أن يتّم منهجية وشمو.. فهذه المقالة محاولة أولى عن هذا الموضوع وإن هي طمحت في الأصل أن تفي

بشارة الخشب وقدم خليجه خبزاً للناس... كانت تحملنا قصاصات من ورق عبر أمسيات كثيرة من مقهى إلي مقهى، لنستمع إلى هذه المحاولة الجديدة، وننتقد تلك القصيدة ونحن نحاول أن نفلسف العالم من حولنا. وظل البعض ممًا يحاول يائساً أن يوفق بين ماركس ونييتشه لينتشل نفسه من صراع مر .

وبلند الحيدري مولود في ١٩٢٦/٩/٢٦ لعائلة كردية ميسورة تطفن ما بين أربيل والسليمانية إذ كان والده ضابطاً في الجيش العراقي فيما والدته هي فاطمة بنت إبراهيم أفندي الحيدري الذي كان يشتغل منصب شيخ الإسلام في إسطنبول. لكن الثابت أن بلند، ويعني "شماشخ" بالغة الكردية، والذي لم يشأ إكمال دراسته الثانوية آنذاك، كان كثير القراءة في شبابه للنصوص الأدبية والفكرية المترجمة المتوفرة ثم صار مجبباً أشد الإعجاب بالشاعر الفرنسي شارل بولدير والشاعرين السوري عمر أبو ريشة واللبناني الياس أبو شبكة بل حاول في الاربعينيات استلهامهم في شخصيته كما أبدع بعض القصائد الرومانسية العمودية في تلك السنوات مما يجعله سلفاً من العراق باتجاه الرومانسية الأصلية.

ويمكن المقارنة، كما فعل نقاد عديدون، بين قصيدة (سميراميس) لبلند الحيدري وقصيدة (شمشون) لإلياس أبو شبكة للتأكد من وجود تشابه كبير بين القصيدتين في الروح والمضامين والشكل، والاستنتاج على أساس تلكناك بلند استلهم شعر أبي شبكة فعلاً. ففي قصيدة بلند تلك تبدو الملكة الأشورية سميراميس أقرب إلى "لبيلة" في قصيدة "شمشون" لإلياس أبو شبكة، أي كرم لسعار الجمال والفتنة الجسدية والشهوة واللذة والهمس المحموم المقترب بالغمر والخبائة والنذالة في أجواء مسرح درامي متفرد للصورة وعروش ومضاجع وتيجان ووسطوة جوفاء العبيثة ذاتها. بيد أن الإقرار بتأثر بلند بأجواء وحتى مشاعر قصيدة ابي شبكة تلك إلى درجة تطفيل وزنها الخفيف وقاقيتها الرائبة الممسورة لا ينفي واقع أنه انطلق من هو اجس أولى منبعها بعض ما وقع بين يديه من قصائد مجموعة بولدير الشهيرة "أزهار الشر".

فالتزعة القوية إلى الدرامية الرومانسية وإلى كسر جاهزية الكلمات والعروض والموسيقى الداخلية، والميل الجامح إلى إعلاء متاعر الوحدة والصمت تؤكد هاجس بلند المبكر نحو "الاستقلالية الشعرية" كما نحو وضع بصمته العراقية الخاصة على تلك القصيدة وكل قصائد مجموعته الأولى "خفقة الطين" الذي مارون عبود يقول "ليس فينا من قدر الصمت، واستوحاه.. كما استوحاه هذا الشاعر، وقل في الأدب العربي من أوحث إليه الطريق ما أوحث إلى بلند الحيدري".

وعلى العموم نعتقد، إن مقارنة جمالية عميقة بين قصيدتي "شمشون" و"سميراميس" وشقاقيتهما وحتى ابطالهما، ينبغي أن تقود إلى الاستنتاج بان بلند يبدو أكثر انثناء للرومانسية من أبي شبكة نفسه. فهناك مسافة تزيد على عقد من الزمان بين تاريخ نشر القصيدتين، بيد أن ثمة تباين واضح بينهما في نوع اللغة الرومانسية ذاتها ومذ البيت الأول. أي بين قول الياس أبو شبكة:

سكرك الليل بالظلي المخمور.. واقشعرت معالم

الديجور. وهناك أيضاً التباين الخفي وأكاد أقول التضاد بين الأرضية الثقافية وربما السياسية بين القصيدتين. فبينما تأسست قصيدة الياس أبو شبكة على شخصية شمشون الأسطورية المستدعاة من التراث الثوراتي، تأسست قصيدة بلند الحيدري على شخصية سميراميس

الأسطورية المستدعاة من التراث الأشوري العراقي ما يمنحها بعداً إضافياً لم يهتم به النقاد. و"سميراميس" هو الاسم الاغريقي للملكة الجديدة، وننتقد تلك القصيدة ونحن نحاول أن نفلسف العالم من حولنا. وظل البعض ممًا يحاول يائساً أن يوفق بين ماركس ونييتشه لينتشل نفسه من صراع مر .

وبلند الحيدري مولود في ١٩٢٦/٩/٢٦ لعائلة كردية ميسورة تطفن ما بين أربيل والسليمانية إذ كان والده ضابطاً في الجيش العراقي فيما والدته هي فاطمة بنت إبراهيم أفندي الحيدري الذي كان يشتغل منصب شيخ الإسلام في إسطنبول. لكن الثابت أن بلند، ويعني "شماشخ" بالغة الكردية، والذي لم يشأ إكمال دراسته الثانوية آنذاك، كان كثير القراءة في شبابه للنصوص الأدبية والفكرية المترجمة المتوفرة ثم صار مجبباً أشد الإعجاب بالشاعر الفرنسي شارل بولدير والشاعرين السوري عمر أبو ريشة واللبناني الياس أبو شبكة بل حاول في الاربعينيات استلهامهم في شخصيته كما أبدع بعض القصائد الرومانسية العمودية في تلك السنوات مما يجعله سلفاً من العراق باتجاه الرومانسية الأصلية.

ويمكن المقارنة، كما فعل نقاد عديدون، بين قصيدة (سميراميس) لبلند الحيدري وقصيدة (شمشون) لإلياس أبو شبكة للتأكد من وجود تشابه كبير بين القصيدتين في الروح والمضامين والشكل، والاستنتاج على أساس تلكناك بلند استلهم شعر أبي شبكة فعلاً. ففي قصيدة بلند تلك تبدو الملكة الأشورية سميراميس أقرب إلى "لبيلة" في قصيدة "شمشون" لإلياس أبو شبكة، أي كرم لسعار الجمال والفتنة الجسدية والشهوة واللذة والهمس المحموم المقترب بالغمر والخبائة والنذالة في أجواء مسرح الملائيين منتصرت لسنوات وشهدت مصرع الملايين منتصرت اربعينيات القرن الماضي حيث كانت مشاعر

فقدان الأمل تسود العالم لا سيما العالم العربي الذي خرج إنسانه محبطاً سياسياً وعاطفياً وهو ما عبر عنه الشعراء والفنانون بتيارات وحركات متمردة، ورومانسية وماركسية أو وجودية أبرزها شعراء المهجر وجماعة أبولو وغيرهم الذين عبر كتاباتهم الخاصة وعبر ترجمة النصوص الأدبية الأوروبية إلى علي محمود طه، وإبراهيم ناجي وأبي شبكة على وجه العربية، ساهموا في إنخفاق تيار رومانسي في المنطقة والعراق عبر عنه عدد من القصاصد الميمن نشرت في الجرائد العراقية والمجلات العربية، وبعضها نشرت خارج العراق، منها أهم قصائد (أزهار دابله) للسياب، و (عاشقة الليل) لنزارك الملائكة وأيضاً قصائد ديوان بلند الحيدري الأول (خفقة الطين) الذي كان بمثابة إعلان عن ولادة شاعر كبير لم ينف يوما استفادته ليس من سابقيه وحسب بل من معاصريه أيضاً، موضحاً في محاضرة له: "في تلك الفترة نشأتنا بالقرب من تجربة الجواهري والياس أبي شبكة، وعمر أبي ريشة، ومحمود حسن إسماعيل.. وكذلك تجربة شعراء المهجر، ولا سيما إيليا أبو ماضي ونسيم عريضة. وكنا نحاول أن نلتقي ونفترق في أن واحداً.. لأن العصر كان يمر بمنعطف، وهذا المنعطف كان يجمع ويفرق في آن واحد.. وإذا كنتم تسألوني عن المضمون، فإنه بلا شك هو الذي يغير الشكل، ولكن ليس الضرورة أن يكون المضمون تجديداً تقديمياً.. ما نقوله نحن في التجديد في الشكل قد لا يكون تقديمياً، ولكن ثمة مضامين فرضت تغييراً في الأشكال .."

صفوة القول، ومثل غيره من رواد حركة الشعر العربي الحديث المعاصرين له، فإن شعر بلند عبّر عن الشعور بالخبية الذي اكتنف العصر الحديث في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، كما عبّر عن ذلك الشاعر البريطاني وديزموند ستوارت الذي ترجم أشعار بلند الحيدري إلى الإنكليزية في عام ١٩٥٠.

بورترية بلند الحيدري

هاشم شفيق

بطبعتها البروتيتين. ذاتي الشكل الترف والسمة الإنيقة في ترتيب مطارح الكلام. من هنا كان المدخل الشعري إلى بلند مهياً طقسه. نأر لهاية رزقاء ترنو إلى روح الشتاء. وشاي تخين يعزز عزلتي ويؤكدها في كتاب صدر في بيروت لشاعر عراقي ابتكر غريته باكراً. تاركا لي غربة من نوع وطني اكتشفتها هناك في غرفة احتوتها اريكة ومدفأة وسط شتاء مكرس.

هناك تبدى الشاعر وتكشف عن نسجيه الخاص طالعا من ظلمة الحرير. حائكا خيوطه المتينة. ومولداً فكرته عبر رؤية وجودية كانت تطرح سؤال الإنسان الابدبي. قلقه ولوعته. ولادته ورحيله. جدواه وعمه، ثقله وخفته، يقبه وشكوه، وجوده وعبثه، حياته وحفته، اسئلة فلسفية كانت تتوالد في شبكته هي اسئلة عصره، اسئلة عصر الانوار، اسئلة الإنسان المعاصر منذ ديديرا وفولتير

الفرنسيين وجان جاك روسو الانجليزي ومرورا بكانط وهابدر وجان بول سارتر. اسئلة نادت بانسان جديد والغت الصورة التقليدية لئسان القرون الوسطى، او انسان عرق محدد. له السلطات النافذة والطاعة الالنهائية لقيادة الجموع بهوى فرداني. تحت هذا التصور وديق هذه الرؤية التحويرية المهجوسة بمشكلات الوجود ولسانه المعاصر كان يتحرك بلند الحيدري مهجوسا بمصير الجعاعة. لذلك لا غرابة ان يتشكل الحس الذي خرج إنسانه محبطا سياسيا وعاطفياً وهو ما عبر عنه الشعراء والفنانون بتيارات وحركات متمردة، ورومانسية وماركسية أو وجودية أبرزها شعراء المهجر وجماعة أبولو وغيرهم الذين عبر كتاباتهم الخاصة وعبر ترجمة النصوص الأدبية الأوروبية إلى علي محمود طه، وإبراهيم ناجي وأبي شبكة على وجه العربية، ساهموا في إنخفاق تيار رومانسي في المنطقة والعراق عبر عنه عدد من القصاصد الميمن نشرت في الجرائد العراقية والمجلات العربية، وبعضها نشرت خارج العراق، منها أهم قصائد (أزهار دابله) للسياب، و (عاشقة الليل) لنزارك الملائكة وأيضاً قصائد ديوان بلند الحيدري الأول (خفقة الطين) الذي كان بمثابة إعلان عن ولادة شاعر كبير لم ينف يوما استفادته ليس من سابقيه وحسب بل من معاصريه أيضاً، موضحاً في محاضرة له: "في تلك الفترة نشأتنا بالقرب من تجربة الجواهري والياس أبي شبكة، وعمر أبي ريشة، ومحمود حسن إسماعيل.. وكذلك تجربة شعراء المهجر، ولا سيما إيليا أبو ماضي ونسيم عريضة. وكنا نحاول أن نلتقي ونفترق في أن واحداً.. لأن العصر كان يمر بمنعطف، وهذا المنعطف كان يجمع ويفرق في آن واحد.. وإذا كنتم تسألوني عن المضمون، فإنه بلا شك هو الذي يغير الشكل، ولكن ليس الضرورة أن يكون المضمون تجديداً تقديمياً.. ما نقوله نحن في التجديد في الشكل قد لا يكون تقديمياً، ولكن ثمة مضامين فرضت تغييراً في الأشكال .."

صفوة القول، ومثل غيره من رواد حركة الشعر العربي الحديث المعاصرين له، فإن شعر بلند عبّر عن الشعور بالخبية الذي اكتنف العصر الحديث في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، كما عبّر عن ذلك الشاعر البريطاني وديزموند ستوارت الذي ترجم أشعار بلند الحيدري إلى الإنكليزية في عام ١٩٤٦).



بهجس رومانتيكي يميل إلى التشفيغ المعبر، وينأى عن البلاغة اللغوية والتوشيات والحواشي اللغفية، قدم بلند ثقفته الشعرية الاولى، وهكذا تبدى، ليكون مختلفاً ومغايرا منذ البدء لمجالييه، له خاصية الفرداة، متماهيا مع نضه واسراره الداخلية، موترا نغمه. ومصعدا شجاء، ومقتربا من الصفاء الشيفف الذي طبع اشعار الياس ابي شبكة في "أغاي الفردوس" وعمر ابي ريشة وامين نخلة، ولعل السبب الرئيسي المولد لهذه الشفافية كان مصدره المدينة. "القصر في منتصف المدينة/ تطل جنبيه روى حزينة/ تكاد ان تصرخ في السكينة/ وحشته القاتمة، اللعينة/تكاد أن تصرخ: ما أقساه/ هذا السنأ الغارق في نجواه". (اغاني المدينة الميتة ١٩٥٠) انها المدينة التي كانت تحفل بها المنازع البغدادية، الأشكال والصور والتعابير، النهر والعمران الحديث والمقاهي التي رافقت عاصمة الرشيد في منتصف العقد العشرين، كل هذه الاشياء مضافا اليها وعبر الايتيق في معرفة اليه الموهبة وهو لغرس نخله وتصفيته ومن ثم صوره لصالح التأثيرات ستولد عبر تأثيراته اللبناينة في ديوانه الثاني "أغاني المدينة الميتة". إذ سرعان ما اعطت هذه التأثيرات القرائية للشعر اللبناي بؤرا مسرحية لبلند لا تخلو من الجوانب والحفزات والنداءات المنفخلة بالهجرة اليها. لمعايشتها بالحواس جميعها، حيث التوغل في بطونها وشعابها واستمراء لذة البقاء فيها، ولذلك سارع إلى الانتقال من الحياة الثورية ذات البعد السياسي الدامي إلى الحياة الجربية ذات الاناسة الحضرية المحسوبة بفضاعات متوسطية، متح من منابع حرة مقرر نجاة على صعيد الثقافة والسلوك ونمط العيشن الجانح إلى نوع من الهناء والسلام الاجتماعي. هنا قطع بلند الحيدري شوطا في تثقيف نفسه وحماية ذاته لتزويدها وتغذيتها بالجديد والمعاصر في دنيا الكتابة. ولئن كان بلند الحيدري المؤسس لجماعة الوقت الضائع التي تضم قائمة الفنانين في بغداد، احتك بها واستطاع من خلالها ومن خلال شهيدته المفتوحة لتعلم أحدث المدارس والتيارات التي شغلت الفن العراقي المعاصر. آنذاك فانه في بيروت قد عمق هذا الاتجاه وطوره، فنشأت لديه حاسة نقدية تشكيلية اولت اهتماما خاصا لمرسة الفن الحديث العراقي من خلال مساهماته ومتابعاته وملاحظاته.

بلند الحيدري اختار زاويته الوجودية متخلياً عن البطولة

علي محمود خضير



لا تكاد تنطبق مقولة "الموهبة وحدها لا تكفي" على شاعر يمثل انطباقها على بلند الحيدري. الشاعر الذي قدم للشعر العربي تجربة جوهرية في ظرف مصيري، لكنه لم يحظ، في المقابل، ما يوازي تلك الإضافة وذلك الإخلاص.

ومواجهة وأمال عريضة، وبلند كان شاعراً ينكس على "تجربته الذاتية"، على ذات مرهفة، بالغة الحساسية، ترقب مصير الإنسان بعينين دامتيتين وتعرف أن ادعاء البطولة الزائفة وإصدار التعاليم المتعالية ضحك مر على "جثث حبلى بالعفن" بتعبير بلند.

الشاعر الفرد والذات

وعلى ضوء هذا التفريق يمكننا فهم تصدر شعراء "الشمول العربي" من نصصات الشهرة عام 1966 قبل "عاشقة الليل" لنازك الملائكة و1967 و"أزهار ذابلة" لبدر شاكر السياب 1967، فلنا أن نسال عن سر "إقصائه" عن مسرح الريادة ومجدها على مدى 70 عاماً. ولعل تعميماً جديداً في سيرة الرجل وشهادته معاصريه يكشف لنا بعضاً من الحقيقة المفقودة، فالرجل على رغم مبدئيته وشجاعة مواقفه (حد التهور)، لم يكن رجل حليبات منافسة ولا مرید معارك أدبية. كان مخلصاً للشعر وقضية الإنسان المحذور، ولم يكن ذلك وحده كافياً لتصدر الريادة.

لنأتمل معاً، وبدقة، هذه الشهادة للناقد نذير العظمة: "بلند الحيدري زميل من مرحلة الرواد، وقد كان من المؤسسين للحدائثة الشعرية، لا سيما في أواخر الأربعينيات ومطلع الخمسينيات. في قصائد "أغاني المدينة الميتة"، يعتمد على التركيز لغةً وتعبيراً وصورة، ولكن الصدور عن التجربة الذاتية وحدها على ما يبدو لا يكفي في المرحلة الحديثة، ولا بد من كسر إطار الذات والخروج إلى التجربة الحضارية الشاملة، واعتقد أن ما أنتجه في لندن خطوة في هذا الاتجاه". يكشف لنا هذه التشخيص سياتاً واضحاً من الفهم ساد غالب مراحل الشعر العربي ما بعد الأربعينيات وحتى اليوم ربما. فهم يريد للشاعر أن يكون صاحب تجربة شاملة، قضايا كبرى ومسؤولية أممية، ضد ومع، حرب والتشرد والتعقيم الإعلامي الشامل. أضف

ما تعلم العربية متمعقاً يعلو مها. قرأ الفلسفة وعلم النفس والنقد لكن صداقته العميقة لجواد سليم وشاكر حسن وإسماعيل الشيلخي منحتة معرفة فريدة بالفن التشكيلي ونقده انعكس لاحقاً على تجربته الشعرية.

جماعة الوقت الضائع

بمعية مجموعة من المثقفين الشبان أسس بلند جماعة "الوقت الضائع" عام 1966 وحظيت وقتها باهتمام باحثين وأدباء، فقد جاءت تعبيراً عن التغيرات العاصفة في الواقع الاجتماعي والسياسي العراقي ما بعد الحرب العالمية الثانية، نتج منه صراع مرير بين الشعب العراقي و"الطبقة الحاكمة التي حاولت الحفاظ على الواقع" بتعبير عبد الوهاب البياتي. ضمت الجماعة أسماء صارت رموزاً بعد ذلك في الفن والشعر والقصة والنقد. الرغبة في التغيير والخروج على الأعراف "المخملية" المحافظة والثورة على السائد مفاهيم ظلت تنكرر على السنة أعضائها المؤسسين وهم جواد ونزار سليم وبلند الحيدري وأكرم الورتري وحسين هداوي وعدنان رؤوف وحسين مردان وساطع عبد الرزاق وآخرين، وعلى رغم عدم وضوح منهجية للجماعة فقد أصدروا مجلتهم "الوقت الضائع" وأسسوا داراً صدر عنها ديوان بلند الأول.

وكان لهم مفاهيم الخاص، مقهى "الواق واق" قرب ساحة عنتر. عكست حوارات الجماعة في المقاهي البغدادية حالة الصيرة البيوت اكتفت أولاد الشباب وهم يتلمسون أدوارهم في الفنون الإبداعية شتى، وبينت مساعي التجديد ورفض القيم القديمة في التعاطي مع الفن والكتابة، معلية من شرطها اللازم للأداء الإبداعي: الحرية. كانوا بلا استناد واضح لحزب سياسي، وقد كلفهم ذلك ملاحقة السلطة فأغلق مفاهيم وتعرضوا إلى المضايقات.

نما فيه فكر بلند الحيدري في الانتماء الحر للإنسان وقضايا مجتمعه، فكان على الدوام شاعراً ملتزماً، متعلماً، يستند إلى رؤيته الداخلية وإن بدا معتقاً لبعض الأيدولوجيات الخاصة داخلها.

النشأة والتمرد المبكر

ولد الحيدري عام 1926 في عائلة برجوازية، الأب ضابط في الجيش والأم بنت شيوخ الإسلام في إسطنبول إبراهيم الحيدري. بعد وفاة والدته المبكرة بعمر 45 عاماً انتقل للعيش في كنف جدته لأبيه. كان المحيط الجديد صارماً، غير منسجم مع روح الشاعر الحرة والمتطلعة، وسط ظرف اجتماعي ملتهب جراء تداعيات الحرب العالمية. حاول الانتحار، وترك الدراسة قبل الثالث المتوسط، ثم هرب من البيت لينام على أرضه بغداد وتحت جسورها في عمر السادسة عشر. حين رحل والده في عمر 45 سنة أيضاً لم يسمح لأبنين بحضور الجنازة والتشييع. صعد بلند من موقفه إزاء العائلة حين اشتغل "عرضحالي" أمام وزارة العدلية (العدل) في الوقت الذي كان خاله داوود الحيدري وزيراً للعدل. بدا ذلك الفتى العنيد مصراً على تحدي المجتمع والحياة، ففكف نفسه بنفسه، كان ينام في المكتبات العامة بالانفاق مع حراسها، أحب الشعر العربي من الترجمات أولاً، وسرعان

في تجربة بلند ترى فجر أن الصمت الذي يتركه الحيدري في نصوصه "يقول أكثر من الكلام؛ حيث وظفه كوسيلة رفض لكل القيود، السياسية والدينية والاجتماعية؛ ولم يكن صمته إذعاناً لسلطة أو استسلاماً لخوف بعينه، بل برهن دائماً أن صمته أداة تعبير ضد أي قمع فكري وسلطوي، علاوة على محاربتة للصمت السلبي الذي يصادر حرية الفرد، متخذاً بعداً رمزياً له دلالات ذات مغزى تحريضي تبرز في العديد من القصائد على طول تجربته الشعرية".

وتضيف: "احتفى الشاعر عبر مسيرته بقصيدة اللوحة والألوان لا تباطه بالفن التشكيلي منذ ثقافته الأولى، ساعدته في ذلك صداقة الأخوين سليم، إضافة إلى ذوقه الفن التشكيلي وقرأاته المتعددة لتجارب الفنانين التشكيليين العالميين. وكان من الطبيعي أن يعكس ذلك كله على نصه، إضافة إلى ولعه بالتصوير الفوتوغرافي؛ فجاء تأثير اللقطة واضحاً على صورته الشعرية المثقلة بالمفنى، الزمن، وغربة المكان، والروح التي شكلت مع الموت رموزاً ظلت دلالاتها تتصاعد في قصائده".

معمار القصيدة

أفاد بلند من ثقافته الواسعة في الفكر والفن التشكيلي على الخصوص داخل اشتغاله الشعري، في ديوانه الثالث "أغاني الحارس المتعب" استغادة بينة من الرسم والتصوير الفوتوغرافي. فالقصيدة هنا صورة، مع استعمال للألوان كرمز تعبيرية. كانت القصائد في الديوان تعبيراً عن أسى ذات يؤلمها مصير الإنسانية في غير مكان من العالم. ترتبط مضامينه مع تطلعات الناس حوله. إنه يصور واقعه المؤلم وصراعهم من دون نسيان تطلعه الشخصي لهم بتحقيق الأمل المنشودة.

يؤمن بلند بالقصيدة- الرسالة فهو يتوجه بكل قصيدة إلى قارئ بعينه، وقد يوجهها إلى زمان ومكان محددين، كما في ديوانه "إلى بيروت مع تحياتي" الذي خص فيه لبنان وقضايا شعبه وقتها، وهو بذلك يعارض خطأ حديثاً نأى- وقتها- بتخليص الشعر من القضايا الأنيبة وتوجيهه نحو المطلق زماناً ومكاناً. ونجد أمثلة للقصائد/ الرسائل تلك في قصيدته "الشعر خاب فيها المتنتي، وقصيدة "أقراص النوم" التي وجهها إلى المثقف المعاصر، ناقداً ومشخماً مأساته ومشكلاته.

كان بلند على قدر كبير من الفهم لقصيدته، وذا مقدرة في الدفاع عنها. هذه المعرفة بقصيدته دفعت دائماً لتجديدها، مستعيناً بثقافة واسعة وباصرة لونية فريدة. كان على اطلاع مباشر بمستجدات الكتابة الغربية وطروحات الفنانين الأوروبيين في الرسم. هكذا تعاون مع جواد سليم في ربايعات بغداد، وكتب قصيدة "النهر الأسود" التي استوحاها من عمل لخالد الرحال. غير أن تأثره الأهم ظهر في استعارة تجارب الفن التشكيلي الأوروبي في اختزال الخطوط وإعطاء أكبر قيمة تعبيرية بأقل خطوط ممكنة، فكتب ما سماه "القصيدة البرقية"، وهي "القصيدة التي تحصل بأقل كلمات ممكنة أكبر قدر من المعنى". فيما استعمل القيم اللونية للانطباعيين بصفة معنوية داخل النص الشعري، لتجلى محاولاته في الإفادة من الفن التشكيلي بقصيدة "حوار في الأبعاد الثلاثة" التي حاول فيها إبران القيمة المنظورية للقصيدة (البعد الثالث) مستفيداً من فن التصوير. يوم لواحدة من تلك النداءات ففضى عام 1996 بعمر السبعين إثر تداعيات جراحة في القلب: "مجنز إلى آخر نقطة ضوء في عيني/ يمد يديه/ يقول: انتظري/ يا نجمة فجرى... ها أنذا أت/ من آخر ما تملك مراتي من ذكري".

"نفس الطريق/ نفس البيوت يشدها جهد عميق نفس السموت/ كنا نقول:/ غدا يموت وتستيق/ من كل دار/ أصوات أطفال صغار/ يتدحرجون مع النهار على الطريق...". وله محاولات في بتر الإيقاع والسموت عليه صمتاً، معتمداً على القارئ الفطن في إتمام التفعيلة كما في قصيدة "شيخوخة" التي أشار بلند لاستخدامه فيها مبدأ "الفراغ المملوء" لهزري مور: "شوية أخرى/ وهذا أنا.../ هنا بجنب المدفاة/ أحلم أن تحلم بي... امرأة". يختصر بلنده، الشعر، في جملة قصيرة دالة "القصيدة هي الصنعة وإخفاء الصنعة في أن".

الصراحة المكلفة

خرج بلند إلى لبنان مطلع السبعينيات. عمل مصححاً في جريدة، ثم مدرساً للعربية، ثم مدير مدرسة. احتضنه الأبناء اللبنانيون وساعدوه في إيجاد شقة وأثاث وعمل. عمل في تحرير مجلة "العلوم" و"الكفاح" و"بيروت المساء". ثم مديراً في "الدار العصرية". وحين اشتدت الحرب الأهلية هناك هاجر إلى تركيا، فاليونان، فسوريا، ثم عاد فترة قصيرة إلى لبنان، لكن القصيف اليومية في بيروت جعل الحياة مستحيلة فقرر العودة إلى بغداد 1977.

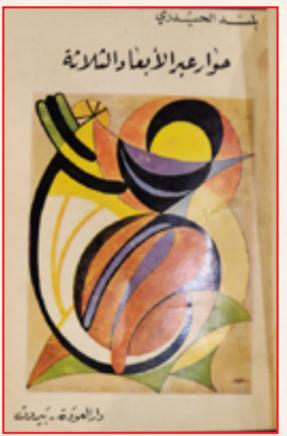
لم يستطع بلند أن يتأقلم مع الوضع العراقي الذي كان يستعد لإتقال البعث على الشيوعيين وانهيار الجبهة الوطنية وعودة الاعتقالات، لذا غادر هذه المرة إلى لندن في غربة جديدة لم تنته إلا بوفاته.

صراحة بلند في مراحل حياته كلها لم تكن بلا فتن، فالرجل، سياسياً، وصل بسبب تهمة الماركسية، إلى حكم الإعدام بحسب زوجته دلال المفتي، مما جعله يغادر بلاده مبكراً. والرجل، بسبب من صراحته، واجه العديد من المشكلات، بعضها يرتبط بمواقفه من وجهات النظر الجديدة في الكتابة عنقد شعراء الجيل السبعيني حين وصفهم بالوقوع "على ظاهر التجربة الأوربية التي تريد تحميم كل علاقة بالواقع نتيجة اليأس ما بعد الحرب"، ووصفاً شعرهم بأنه "أنوي لا ارتباط له بالمعنى"، وأن قصيدة الشباب -وقتها- "فخ على زجاج بارد يصنع الأشكال والحقائق". وأن القصيدة لم تات بجديد سوى غرابة الصور الشعرية: "الشعراء الشباب مراهفون في اقتناص الصور السوربالية، ولكن ما نتيجة هذه الصور؟".

كان بلند جداً في موقفه من الشعر، وفي ما اعتنقه من مذهب في الكتابة، لم يراع صداقة، ولم يجامل على حساب مبدأ. لنتذكر من موقفه من "الأونيسيم" التي انتقد قطعيتها مع التراث، على رغم عبق صداقته مع أونيسيس. ولنتذكر إعلانه اعترال الشعر حين رآه "يضيق عنده على التجربة" وهو إعلان مرده نفسي يتعلق بصديق سريرة الشاعر وتصالحه مع ذات موكولة بأسى الإنسان الذي راه بلند يتحطم على صخرة النكسات المتتالية. هل يقول ذلك التصريح شاعر أمة مجيدة وسط مناخ ملتهب بالشعارات؟ بالتأكيد لا. لكن شاعراً مثل بلند يقولها انتصاراً للحقيقة الشعرية بوصفها تجربة فريدة محضنة. كان يمكن لبلند تبني قضية الكورب، مثلاً، والصعود على أكفائها إلى مجد الجوائز وسماء الشهرة لكنه ظل وفياً لإسساسه الخاص، لا ما ينبغي فعله في "إدارة" الموهبة الشعرية. إنه شاعر نداءات داخلية تصوغها الذكرى والتجربة والاعتمال الفكري، وقد استجاب قلبه ذات يوم لواحدة من تلك النداءات ففضى عام 1996 بعمر السبعين إثر تداعيات جراحة في القلب: "مجنز إلى آخر نقطة ضوء في عيني/ يمد يديه/ يقول: انتظري/ يا نجمة فجرى... ها أنذا أت/ من آخر ما تملك مراتي من ذكري".

بلند الحيدري.. إحياء المفاتحات القصدي

ريسان الخزعلي



(1)

بلند الحيدري، القطب الرابع في حركة تجديد الشعر العراقي والعربي في أربعينيات القرن الماضي، كثيراً ما يتعرض للناسي عند بعض النقاد والدارسين عندما يكون الحديث عن الريادة التجديدية، إذ يذكر هذا البعض أسماء الثنائي (السياب، البياتي، الملائكة) ولا يذكر اسمه.

ومثل هذا الناسي فيه الكثير من التجني وعدم الدقة، وضعف الإنصات والتلقي تاريخياً وفنياً. والحيدري لا يقل أهمية وخصوصية عن أقرانه في مسعى التجديد والتحديث، ومن ثم تأصيل هذا المسعى.

إن أعمال الشاعر الأولى (خفقة الطين، أغاني المدينة الميتة، جثث مع الفجر، خطوات في الغربة، أغاني الحارس المتعب، رحلة الحروف الصفر)، تؤكد دور الشاعر الريادي على مستويات عدة: الشكل، البناء، التحرر من قيود القصيدة العربية القديمة، جماليات اللغة والصورة والرمز، طبيعة المواضيع، الانفتاح على تحولات الشعر العالمي وتطويعها فنياً، الموازنة بين ما هو واقعي حسي والتجربة الوجودية، مسرحية العمل الشعري، التواشج مع الفن التشكيلي، وغيرها.

وبرغم هذه المكنات الفنية التي توافر عليها وعكسها تطبيقاً في شعره، إلا أنه لم يجد لها تلمساً بالشبان الذين يرونه جزافاً ولا يرسل بدراسات كتيبة مستفيضة عن تجربته الشعرية كما حصل مع أقرانه، سواء كان ذلك في الدراسات الأكاديمية أو النقدية العامة، سوى بعض مقالات نشرت في كتب عنه وآخرين. وهنا أتحدث عن فترة زمنية تسبق مغادرته العراق.

(2)

أدرك الشاعر مدى الحيف الفني/ التقبيعي الذي لحق به مبكراً، وعمد إلى تثبيت بعض الأقوال القصيرة بحقه لقصائمه من قبله وأدباء آخرين، كمتفتحات في معظم مجاميعه السطحية الوجودية أن نعتيرها واقعية - بدر شاكر السياب 1966.

إن بلند شاعر مبدع في أساليبه الجديدة التي حققها وفي طريقته التي لا يقف فيها معه إلا شعراء قلائل من العراق - عبد الوهاب البياتي 1962.

قد يكون الحيدري أقرب إلى أبو ريشه تعبيراً ولكنه أخو أبو شبكة في الطاحونة الحمراء، فالرحى سورية وأما الحنطة فعراقية.

ليس فينا من قدر الصمت واستوحاه كما استوحاه هذا الشاعر، وقل/ الأدب العربي من أوححت إليه الطريق ما أوححت إلى بلند

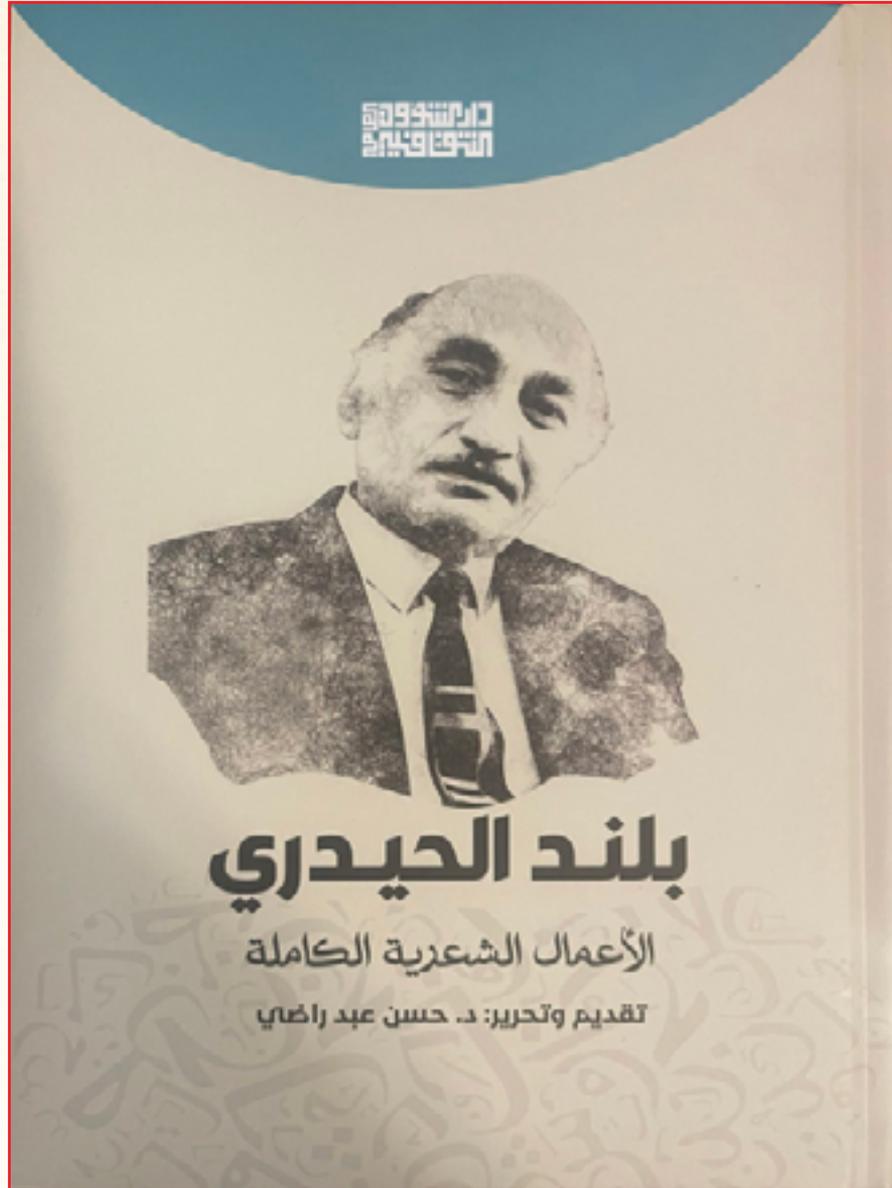
هذا أنا

بلند الحيدري



هذا
أنا
ملقى . هناك حقيبتان
وخطى تجوس على رصيف لا يعود
إلى مكان
من ألف ميناء أتيت
ولألف ميناء أصار
وبناظري ألف انتظار
لا...
ما انتهيت
لا... ما انتهيت فلم تزل
حبلى كرومك يا طريق ولم تزل
عطشى الدنان
أنا أخاف
أخاف ان تصحو ليالي الصموات
الحران
فإذا الحياة
كما تقول لنا الحياة:
يد تلوح في رصيف لا يعود إلى مكان
xxx
لا...
ما انتهيت
فورا كل ليالي هذي الأرض لي حب
وبيت
ويظل لي حب وبي
وبرغم كل سكنها القلق الممض
وبرغم ما في الجراح من حقد
وبغض
سيظل لي حب وبيت
وقد يعود بي الزمان
xxx

لو عاد بي
لو ضم صحو سمائي الزرقاء هدي
أترى سيخفق لي بذلك البيت
قلب
أترى سينكر ابن ذاك الأمس
حب
أترى ستبسم مقلتان
أم تسخران
وتسألان
— أو ما انتهيت
ماذا تريد ولم أتيت
إني أرى في ناظريك حكاية عن ألف
ميت
وستصرخان:



بلند الحيدري

الأعمال الشعرية الكاملة

تقديم وتحرير: د. حسن عبد راضي

إلى مدينة... كالحجر الناتئ

لا تقبروه ففي يديه... غداً
سينتحر الصباح فلا طريق ولا سنى
لا...
اطردوه فما بخطوته لنا
غيم لتخضر المني
وستعبران
xxx
هذا... أنا
ملقى. هالك... حقيبتان
وإذا الحياة
كما تقول لنا الحياة:
يد تلوح في رصيف لا يعود إلى مكان

طباعة
أيتها الحبيبة التي تجيء كآخر الليل
مقلنة
بهموم العشاق المنبوذين الا...
من حلم أت قبل الصبح
أيتها الحبيبة المستيقظة في الألم
كالجرح
أيتها الرغبة القديمة
يا أرض الملح
ها أنا أسقط عند أسوارك
أتلحق بنواتي أحبارك

اسقط
واقوم
اسقط
واقوم
ويظل الليل وراء الأسوار طويلا
مثل حكايات عجائزنا
مثل مغازلهن تكرر حكايات وأغاني
سوداء
عن امرأة تحبل في الحي ولا تلد
تكبر في الوهم ولا تعد
ها أنا
أسقط
أسقط
واقوم



ويظل الليل طويلا
يتختر في الحجر الناتئ جرحا
يتختر في الجرح دما
يا ليل... إن صرت فما
خبرها عن هذا المرعى وراء الأسوار
خبرها أن دمي ما زال على الأسوار
×
سأجيء إليك كآخر ليك
مثقلة
ببشائر صبح
بالبرء المتململ خلف الجرح
سأجيء إليك كآخر لي
ليلي لا أخر له
مقطوع في الغربية من يعيش ظله
×
و مددنا كفينا
مد بها أكثر
مدي بها أكثر
لا... ما التقينا. ها نحن نعود
لصمتينا
×
سأجيء إليك. أجيء إليك
ولكن... لن تصلي
فأنا ممحو في ظلي... ظلي لا يعرف
شيئا عني
فلماذا تأتين... ولن تصلي
×
و مددنا كفينا
مد بها أكثر... أكثر

لن تصلي... أكثر... أكثر. لن تصلي
ها نحن نعود لصمتينا
نسقط في عتمة عيننا
لا شيء سوى الليل يللم ظلي
×
... والليل طويل خلف الأسوار
الليل طويل
أطول من برد شتانا
أبرد من عين امرأة لا تملك سرا
يا أنت
الليل البارد خلف الأسوار
يا أنت الحجر الناتئ بين الأحجار
يا أرض الملح
يا حبا كالجرح
هل لي... أن أسأل ليلك أن يستر
عاري
هل لي... أن أغسل في الظلمة
أوزاري
هل لي...
×
يا وجه امرأة أقسى من وطني
سيجيء الصبح
وستعبر بي مرميا خلف الأسوار
ومدميا خلف الأسوار
ولكن... لن تعرفيني
لن تعرفيني
فأنا ممحو في ظلي... ظلي لا يذكر
شيئا عني
لن تعرفيني

"21 عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

عراقيون

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى للإعلام والثقافة والفنون

